دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
الله . الرسول . الإسلام

الأساس

عبد الغني

سعيد حوى

الجزء الرابع

طبعة شرعية مزيدة ومنقحه

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون : ٣٩١٧٤٧٠

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

مؤيِّدات الإسلام

ذكرنا فى مقدمة الحديث عن هذا الأصل أن للإسلام مؤيدات.

والآن نحب أن نفصل هذه المؤيدات فنقول:

إن مؤيدات الإسلام تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ – مؤيدات بشرية تتمثل بالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والحكم.

٢ – مؤيدات فطرية تتمثل بالعقوبة التلقائية التى تترتب على مخالفة أمر الله.

٣ – مؤيدات ربانية تتمثل بعقوبة القهر الإلهى فى الدنيا، أو بالثواب والعقاب فى الدار الآخرة.

وقد مر معنا تفصيل كامل للمؤيدات البشرية فى وضعها الإسلامى الصحيح.

ومر معنا أثناء الحديث عن السياسة العسكرية فى الفصل الثالث، وأثناء الحديث عن العقوبات المحددة وغير المحددة كالتعازير. ومر معنا بشكل مفصل فى كتاب «**جند الله ثقافة وأخلاقاً**».

ولذلك فإننا لا نجدنا بحاجة هنا فى هذا الفصل إلى الكلام عن المؤيدات البشرية التى افترض الله على المسلمين أن يقوموا بها من أجل إقامة دينه، وعلى هذا فسنقتصر فى هذا الفصل على الحديث عن المؤيدات الفطرية للإسلام والمؤيدات الربانية.

ونعنى بالمؤيدات الفطرية العقوبات التلقائية التى تترتب عفوياً نتيجة لأى انحراف عن أمر الله، لأنه لما كان الإسلام هو دين الفطرة البشرية: ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ [الروم: ٣٠] ولما كان الإنسان عندما يمشى فى غير طريق الفطرة يعذب ذاته فينشقى، وكلما أوغل فى الطريق غير الفطرى ازداد شقاؤه مهما كان فِي الطريق الآخر من ملذات مآلها الضياع.

لذلك قال الله تعالى: ﴿ **ومَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ونَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٤]. فالمعيشة الضنك فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة، وعبر عن الذين يسيرون فى طريق الكفر والضلال بأنهم يظلمون أنفسهم: ﴿ **فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [التوبة: ٣٦]، ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الزخرف: ٧٦]، ﴿ **ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١١٧] وما ذلك إلا لأنهم أوردوها الهلاك فى الآخرة والشقاء فى الدنيا.

أما المسلم فعلى العكس من ذلك يعيش بسعادة في الدنيا، وينعم بنعيم الآخرة.

قال تعالى: ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ [النحل: ٩٧].

وهذا الكلام قد يكون لأول بادرة عجيبا على بعض الأسماع، ولكنه الواقع الذى تشهد له كل وقائع الدنيا، ومهمتنا فى بحث المؤيدات الفطرية أن نبرهن من واقع الحياة البشرية عليه.

ونعنى بالمؤيدات الربانية:

ما يعاقب - الله عز وجل - به المنحرفين عن أمره فى الدنيا، وما يمد به المقبلين على طاعته من ألوان التأييد فيها.

وما أعده الله عز وجل للمنحرفين عن طاعته من عقوبة فى الآخرة، وما أعده لأهل طاعته من نعيم.

وعلى هذا فسينقسم هذا الفصل إلى قسمين:

القسم الأول: المؤيدات الفطرية.

القسم الثانى: المؤيدات الربانية.

والقسم الثانى ينقسم إلى فقرتين:

(أ) المؤيدات الربانية فى الدنيا.

(ب) المؤيدات الربانية فى الآخرة.

وقبل الحديث عن المؤيدات الربانية فى الآخرة سنتحدث عن اليوم الآخر ويقينية وجوده.

* * *

القسم الأول

المؤيدات الفطرية

إن هذا الإسلام يمثل سنن الله التى لا تستقيم الحياة البشرية إلا بها، وكما أن الإنسان إذا لم يتنفس يختنق، وإذا لم يأكل يموت لمخالفته سنن الله، فإن أى انحراف عن أىّ جزء من أجزاء الإسلام يحمل فى طياته عقوبته التى تحيق بالمنحرفين عنه. فمن رفض العبودية لله عاقبته سنن الله بأن تجعله عبداً للإنسان. ومن غش ليربح عاقبته سنن الله بأن يفقد الثقة ويخسر. ومن فرط فى واجب اليوم عاقبته سنن الله بمضاعفة التعب فى يوم آخر..

وهكذا فما من انحراف عن أى جانب من الإسلام إلا وتقابله عقوبة تليق به فى الدنيا، لأن الانحراف عن قوانين الله فى الكون والإنسان والاجتماع دائماً ليس لصالح الإنسان بل هو تدمير له أو تعذيب..

وسنضرب عشرة أمثلة من عقوبات الفطرة، على عشرة أمثلة من الانحراف عن أمر الله ليتضح هذا المؤيد القوى من مؤيدات الإسلام.

١ - الزنـــا

إن العقوبات الفطرية التى رتبها الله على الاتصال غير الشرعى بين الرجل والمرأة كثيرة تجعل المتعة أقل بكثير جداً من الألم.

فأول العقوبات: إذا حملت المرأة من سفاح فإنها ستمرض وتتألم وتتعطل عن العمل إن كانت عاملة، دون أن يتحمل معها أحد عبء المشاركة بالإنفاق عليها، أو على ولدها، والمرأة عادة لا ترغب فى الأولاد عن هذا الطريق، فهى إما أن تجهض نفسها وذلك ألم أكثر مما تمتعت فيه، وإما ستتحمل مسئولية الحمل والولد وحدها، وهذا ألم آخر يفوق المتعة.

وثانى العقوبات: ما يترتب على عملية الزنا من أمراض جنسية لا تكون إلا عن الزنا كالزهرى والقرحة الأكالة، وجرب التناسل، وسنط التناسل، وهربس التناسل، ومرض السيلان.

وثالث العقوبات: تأنيب الضمير لخيانة الرجل زوجته بزناه بغيرها، وخيانة المرأة زوجها بزناها بغيره والخوف الذى يحيط بالموضوع من خشية كل من الزانية والزانى افتضاح أمرهما فى كل حال، سواء أكانا متزوجين أو غير متزوجين.

ورابع العقوبات: تعطيل الحياة الزوجية، إذ الحياة الزوجية تقوم على أساس صلة المودة التى يغذيها شعور كل من الزوجين بأنه للآخر، فإذا ما أفرغ الزوج طاقته الجنسية عند غير زوجته، وأفرغت المرأة طاقتها الجنسية عند غير زوجها، فترت العلاقة بين الزوجين، ولم يحس أحدهما بالسكن نحو الآخر، وكل منهما صار يرى زوجه لغيره، وفى ذلك من الألم الكثير، إذ ينشأ عند ذلك الجفاء والخصام وعدم الطاعة والرعاية، وبالتالى الطلاق فضياع الأولاد، فزواج آخر قد يكون له نفس المصير.

وخامس العقوبات: أن عملية الجماع ينشأ عنها مودة خاصة، وينتج عن هذا ألم نفسى عند الزانى لشعوره أن هذا الذى تمت معه عملية الجماع سيكون لغيره فى مثل وضعه. وهذا قريب من السابق ولكن ذلك خصصناه لآثار هذا على الحياة الزوجية.

وسادس العقوبات: أن الذى تعود على الزنا يبقى فى شره دائم للنساء ويعيش نتيجة لهذا فى قلق دائم، وضياع واضطراب نتيجة البحث، ومحاولة الاتصال، وفشل وسائل الإغراء، وعدم استطاعته الوصل، وهو بالتالى ليس لولد، ولا لبيت، ولا قرابة له، ويكفيه نتيجة لذلك أن استغنى بالزنا عن الزواج ألا يجد من يرعاه فى مرض أو فى كبر أو من يواسيه أو يحترمه أو يحس معه بأواصر الحنان والرحمة والألفة.

إن الزنا فى الحقيقة عملية تحطيم لأنفس ولأسر ولاجتماع ولذلك قال الله فيه: ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٣٢] أنه طريق سيىء وعقوبة سلوك الطريق السيىء معجلة فيه.

والمسألة بعد ذلك فى الإسلام قد رتب عليها عقوبة جسدية تصل إلى الإعدام فى حالة، وعذاب الله بعد ذلك آت لمن لم يتب، ونحن هنا فقط بسبيل شرح عقوبة سنن الحياة عن الانحراف عن أمر الله ودينه وشريعته، ومهمتنا أن نشير إشارات ولا نطمع فى الإحاطة.

٢ - شرب الخمر

إن الخمر فى دين الله محرمة، وككل محرم فإن إتيانه عقوبته فيه، وهذه بعض عقوبات الانحراف عن أمر الله التى تنتج عن مجرد تعاطى هذا المحرم:

١ - إن شارب الخمر أول ما يصاب بإدراكه وعقله، ويكفى أن نعلم أن شرب كأس واحد من الويسكى يؤدى إلى أن تكثر أخطاء ضارب الآلة الكاتبة مثلاً، ويلاحظ الاضطراب عن الوضع المعتاد فى كل تصرف من تصرفات شاربه، وأى عقوبة أكبر من عقوبة تجعل الإنسان ينحدر إلى وضع المجانين.

٢ – إن شارب الخمر يفقد إرادته وقوة ضبطه لنفسه فيكثر هيمانه، وتكثر سقطات لسانه، وكلما أوغل في شرب الخمر أكثر كلما زادت عنده هذه الظاهرة أكثر، وأبشع بإنسان ينهار نفسياً كل يوم.

٣ – إن ١٣ في المائة من حوادث المرور سببها الخمر، وكثيراً من الجرائم والفضائع والخيانات سببها الخمر كذلك، وهذه عقوبة فطرية لا تصيب صاحبها فقط، بل تصيب المجتمع الذى يسمح بشرب الخمر.

٤ – والخمر يؤثر على بنية الإنسان تأثيراً كبيراً، لدرجة أن هذا التأثير ينتقل إلى الذرية، وقد لوحظ أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحى الجسم، ضعفاء البنية، ناقصى العقول، ويكون لديهم ميل إلى الإجرام، ودافع إلى الشر.

٥ – وكثير من الأمراض سببها الخمر، فانفجار الشرايين في الدماغ، وارتفاع الضغط، وعسر الهضم، واحتقانات المعدة، وأمراض الكبد وضعف المقاومة.. وكثير من الأمراض، للخمر دخل في وجودها مع من يشربها.

٦ – ومن عقوبات جريمة شرب الخمر الفطرية، إضاعة الوقت، وقتل النشاط، وإثارة البغضاء، وخراب البيوت، وموت الضمير، وفقدان الحساسية، وأشياء أخرى كثيرة.

إن عقوبة شرب الخمر فيه، ولقد رتب الشارع عقوبة تشريعية رادعة على ذلك، ليس هنا محل بحثها.

٣ – القمار والميسر

وكل انحراف عن أمر الله عقوبته فيه، فإن القمار والميسر هكذا، فالعقوبات الفطرية التى تترتب على هذه المعصية كثيرة، وهى غير ما يستحقه المقامر من تعزير في التشريع، وغير ما يستحقه من عقوبة يوم القيامة على ما اقترفت يداه. ونلخص أهم العقوبات الفطرية في القمار بما يلى:

١ – تحطيم أعصاب المقامر أثناء المقامرة، إذ تتوجه جميع قواه العقلية وتستوفز أعصابه لمعرفة النتيجة خسارة أو ربحا بشكل لا مثيل له، مما يؤدى إلى إرهاق الأعصاب، إذ أن المقامرة تجر بعضها بعضاً، فمن بدأ مرة تابع مرات، وهو في هذه الحالة من التوتر العصبى، فالاستمرار بهذا تحطيم لشخصية الإنسان بشكل كامل.

٢ – ومن أهم العقوبات أن المقامر يبقى يومه كله قبل ميعاد بدء مقامرته، وهو يفكر فيها، في ربحها وخسارتها، ثم بعد أن ينتهى من مغامرته فهو أحد اثنين إما رابح تأخذه النشوة فيبقى يعيش فيها، وإما خاسر مكمود يتذكر خسارته، معنى هذا أن المقامر لا يعيش لشيء إلا للمقامرة، قد استغرقه القمار عن كل واجب.

٣ – إن القمار ربح أو خسارة غير معقولين يتحكم بهما شيء غير معقول وينتج عن هذا أن المتقامرين دائماً فى حالة حقد وحسد وبغضاء، وتشاحن ظاهر وخفى فيما بينهم، فجو المتقامرين جو شقاء ونكد، لا يمكن أن تجد فيه سعادة مستمرة.

٤ – عملية الرابح الوحيد فى المقامرة، هو من يدير عملية القمار من ناد أو مقهى، أو صاحب بيت، وأما الأطراف الأخرى فهى فى خسارة وربح.

ويترتب على الخسارة فواجع وفظائع، فالغنى اليوم فقير غداً، وصاحب العيال قد يفرط بقوت أولاده على مائدة القمار، وقد يبيع داره وقد وقد مما هو من تصرفات المجانين، إذ يتحكم بعملية نقل الملكية ضربة نرد أو ورقة لعب، وكفى بهذا عقوبة للخاسر.

أما الرابح اليوم فهو الخاسر غداً، إذ يوم لك ويوم عليك فى القمار، ولن يربح فى النهاية الا الخبثاء الذين يديرون هذه القضايا، وكل ما فى الأمر أن الرابح اليوم خسر مودة الآخرين.

٥ – إن الذى ربح فى القمار لا يبالى كيف أنفق المال، لأنه لم يتعب فى تحصيله، الذى يخسر قد تضطره خسارته للخيانة والسرقة، وفى كلا الحالين تجد الانحراف الذى يؤدى إلى الملاحقات القانونية، والعقوبات أو الضرر الاجتماعى، على كل حال، إذ الرابح عن هذا الطريق لن يفكر فى العمل، وذلك تعويد له على الكسل والتسكع، فإذا ما خسر فى يوم آخر فماذا يفعل بعد أن اعتاد على عدم مزاولة العمل، إنه إن عمل فبألم، وإن لم يعمل عانى شقاء.

ولكى نعرف بالضبط كيف أن القمار عقوبته فيه، ادرس أحوال المقامرين تجد الديون والشقاء والألم ونسيان الواجبات، والتفريط بحقوق الأهل والأصحاب والناس. والشرود الدائم، والخطأ الكثير، إنك لا تجد إنساناً سوياً أبداً.

٤ – أكل لحم الخنزير

أول عقوبات الأنحراف عن أمر الله فى أكل لحم الخنزير أن آكل لحم الخنزير معرض للإصابة بدودة لحم الخنزير يقول (بيتى وديكسون):

(إن الإصابة بها تكاد تكون عامة فى جهات خاصة من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا ولكنها تكاد تكون نادرة فى البلاد الشرقية لتحريم دين أهلها أكل لحم الخنزير).

وثانى هذه العقوبات أن آكل لحم الخنزير معرض لمرض التريخينا الذى من خواصه:

أولاً: لا يمكن للطبيب الأخصائى أن يذكر أن خنزيراً ما غير مصاب بهذه

الديدان إلا إذا فحص كل جزء من عضلاته تحت المجهر وهذا غير ممكن لأنه إذا فعل ذلك نفد لحم الحيوان.

ثانيا: الأنثى الواحدة من هذه الديدان تضع نحو ١٥٠٠ جنين فى الغشاء المخاطى المبطن لأمعاء المصاب، فتوزع الملايين المولودة من الإناث جميعًا بطريق الدورة الدموية إلى جميع أجزاء الجسم، فتتجمع الأجنة فى العضلات الإرادية حيث تسبب آلاماً شديدة، والتهابات عضلية مؤلمة تدعو إلى انتفاخ النسيج العضلى وصلابته، وتكون نتيجة ذلك الأورام التى تمتد بطول العضلات.

ثالثا: لا يوجد علاج لهذا المرض، ولأسباب فنية لا يجدى معه دواء، فحتى الآن لم يعرف له دواء مناسب.

وثالث هذه العقوبات أن لحم الخنزير ينقل للإنسان بعض الجراثيم العفنة، والباراتيفود التى تسبب للإنسان تسممًا حادًا، مصحوبًا بالتهابات شديدة فى الجهاز الهضمى، وقد تسبب الوفاة فى بضع ساعات.

ورابع هذه العقوبات ما يحدثه أكل لحم الخنزير من تغيير فى نفسية الإنسان يخرجها عن وضعها السليم وذلك أن للطعام والشراب أثرًا فى نفس الإنسان بشكل واضح.

فمثلاً: بعض الأشربة إذا شربها الإنسان أحس بفرح وخفة ونشاط، وهناك طعام يحس معه الإنسان بفتور وكسل، ويلاحظ أن نفسية الذين لا يأكلون إلا النبات تختلف عن نفسية الذين يأكلون اللحوم، وحتى الذين يديمون أكل لحم الجمل، تجد نفسيتهم تختلف عن نفسية الذين يديمون أكل لحم الضان، وهذا واضح فى الحيوانات بشكل بارز، فالحيوانات النباتية ألطف وأقل شراسة وأكثر انقيادًا من الحيوانات اللاحمة، فلنوعية الطعام أثر فى تكوين أخلاق النفس البشرية، والخنزير بشكل عام له أخلاق هابطة دنيئة، وعنده بلادة فظيعة، وتحسس بطىء بكل ما يجرى حوله، فأكل لحمه يؤثر تأثيرًا سيئًا على نفسية آكليه، ونظرة واحدة إلى المناطق التى يؤكل فيها لحم الخنزير، ومقارنتها بغيرها من المناطق الأخرى تشعرك بوضوح أن هناك اختلافًا جوهريًا فى الأخلاق والنفسية، فمثلاً خلق الشرف، والمحافظة على العرض، والغضب لانتهاك حرمات الزوجة والأرحام، وتبلد كثير من جوانب الشخصية البشرية، كل هذا تجده بشكل واضح فى المناطق التى يؤكل فيها لحم الخنزير، وتجد عكسه فى المناطق الأخرى، إلا إذا وجدت عوامل أخرى أدت إلى تشابه فى النفسيات.

وهذا عقاب فظيع لا تحس به إلا نفس شفافة صافية، أن تمرض نفس الإنسان لدرجة التبلد، فلا تقف المواقف المناسبة السليمة من الحوادث، إذ ينشأ عن هذا ضعف

رابطة الزوجية، وضعف رابطة الأبوة والبنوة، وضعف رابطة الأسرة بشكل عام، وموت الاحساسات الإنسانية الطيبة، من ثقة إلى حنان إلى عطف، وهذا كله عذاب، وهذا كله ملاحظ فى المناطقة التى تأكل لحم الخنزير.

٥ - عدم قرار المرأة فى بيتها

لقد أمر الله نساء النبى أمراً هو لكل امرأة فقال:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وإذن فقد جعل الله المهنة الأساسية للمرأة داخل بيتها، كأم وربة بيت ترعى زوجها وأولادها، وجعل لها فى مقابل ذلك أن نفقتها على غيرها دائماً: على زوجها بعد الزواج، وعلى أبيها قبله لأنها فى مرحلة تدريب على رعاية البيت، والزوج والأولاد، وفى حالة فقد هذا وهذا فرض نفقتها على أقرب الناس إليها، ثم الأقرب إلا إذا كانت غنية.

وما له علاقة فى هذه القضايا قد مر تفصيلاً فى بداية المنهاج الاجتماعى والأخلاقى. ولكن نفرض أن النساء والرجال قد اتفقوا على صيغة أخرى من صيغ التعايش، تصبح فيها المرأة كالرجل فى الوظيفة والعمل، والمطالبة بالنفقة والكسب، كما حدث هذا عملياً بشكل كامل فى العالم الغربى الآن، حيث أصبح الرجل والمرأة كلاهما خارج البيت فى العمل ويتقاسمان أمر البيت كذلك.

فما هى العقوبات الفطرية التى ترتبت، ويمكن أن تترتب على مثل هذا كله؟

إن أول عقوبة فطرية تترتب على مثل هذا: أن تضطرب العلاقة بين الرجل وزوجته، فلا هى تحس بطمأنينة ولا هو يحس بسكن، ولا الأولاد يحسون برعاية كاملة ولا المرأة تستطيع ذلك.

وثانى العقوبات: أن المرأة تشعر بأنها تستطيع الاستغناء عن زوجها نتيجة لذلك، والرجل لا يتغير عليه كثير من الأمور إذا فقد زوجته، وينتج عن هذا أن عقد الزواج دائماً معرض للخطر، ومن العجيب أن فى بلاد الإسلام حيث يباح الطلاق تكاد تكون نسبة الطلاق خاصة فى البيئات الملتزمة بالإسلام صفراً، بينما نسبة الطلاق فى بعض البلدان الغربية تصل إلى السبع من حالات الزواج.

وثالث العقوبات: أن المرأة بهذا الخروج أسقطت حق نفقتها على الآخرين، مما يجعلها فى حالة عذاب وشقاء دائم متى بلغت سن الرشد، إذ تطالب بأن تنفق على نفسها، وعليها أن تبحث عن عمل، وأن تعمل كالرجل.

ورابع العقوبات: أن المرأة نتيجة لهذا تبدأ تفقد خصائص أنوثتها، بحيث لا تعود

صالحة لوظيفتها الأساسية: حمل الجنين وحضانته لاستمرار النوع البشرى وفى ذلك ألم نفسى كبير.

وسنرى هذا أثناء الكلام الذى سننقله فى نهاية هذا البحث عن (سيد قطب).

وخامس العقوبات: أن تتفكك الروابط الاجتماعية، فلا أسرة ولا أبوة ولا بنوة ولا مشاعر عاطفية، فكم من أب لا يعرف عن أبنائه شيئًا، وكم من أم مهددة، ولعل عيد الأم فى الغرب إنما هو رمز فظيع على انقطاع أواصر الأسرة، حتى احتاجوا إلى يوم يتذكر فيه الإنسان أن له أماً وأباً.

وسادس العقوبات: أنه بانعدام رابطة الأسرة أو ضعفها أصبح الطفل لا يرث عن الآباء خصائص الإنسانية وعواطفها، ولذلك تجد هذا الضياع الذى يعانيه المراهق فى الغرب، والذى مظهره جيل الخنافس والمشردون والفوضويون وغير المبالين.

وهذه أمثلة، والعقوبات الفطرية التى تترتب على هذا أكثر، حتى أنك لتستطيع أن تقول أن الاجتماع البشرى كله معرض لخطر الاضمحلال النفسى والجسدى نتيجة للعقوبات التى تترتب على هذا الانحراف.

وطبعاً كلامنا عندما تصبح القاعدة هى عدم جلوس المرأة فى بيتها للقيام برعاية الزواج والأولاد، وعدم التزامها بآداب الإسلام خارجه. أما إذا كان الأصل فى مجتمع قرارها، وحدثت حالات نادرة ضمن قيود محدودة كما رأينا. فهذا لا يؤثر، وليس فيه ضرر مادام الالتزام بالإسلام موجوداً.

٦ - الرشـــوة

لقد حرم الإسلام الرشوة: أخذها وإعطاءها والوساطة لها: (لعن رسول الله ﷺ الراشى والمرتشى والرائش بينهما) وقال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وهذه الجريمة تترب عليها عقوبات فطرية كثيرة تصيب الدولة التى تنتشر بها، والمجتمع الذى يعيش فيها، والفرد الذى تتم العملية له أو عليه.

فمن أول العقوبات الفطرية أن المجتمع الذى يحس بأنه لا ينال الحق فيه إلا بالباطل والرشوة، تضيع به الموازين، وتنهار الثقة، ويزداد فيه الشك ويتفسخ، ويصبح ناقما على دولته غير واثق بها، مما يسهل الاطاحة بها وإنهيارها.

وثانى العقوبات: أن الرشوة إذا انتشرت أصبح كل إنسان معرضاً لدفعها: الآخذ فى مجال مضطر للدفع فى مجال آخر، وفى ذلك ألم يحسه كل من عاناه.

وثالث العقوبات: أن المرتشى إنسان يعيش دائمًا فى حالة خوف من أن يفتضح أمره وكلك الراشى.

ورابع العقوبات: أن كلا الرجلين إنسان فاقد القيمة، هذا شعوره بنفسه، وشعور الآخرين به. أنه إنسان منحط غير جدير بالأحترام، ويربط الناس تصرفاته المالية كلها بهذا، فهو إذا أقام بناء قالوا مرتش، وإذا ظهر له مال قالوا كذلك، وهو فى هذه الحالة ينحدر وضعه النفسى من سيىء إلى أسوأ، حتى يتبلد ضميره، ويعيش أزمة مقت الآخرين له، ومقته للآخرين، فلا يبالى بما يقال عنه، ويؤثر هذا على سلوك أسرته كلها، فتنحرف ويصبح وجودها ظاهرة غير عادية.

وخامس هذه العقوبات: أن المجتمع الذى يسمح بمثل هذا، مجتمع تضيع فيه الحقوق، ويأكل القوى فيه الضعيف، وتضيع به الحدود. فحق الدولة يصبح للأفراد، وحق الأفراد ينتقل إلى غيرهم بغير طريق مشروع، ومجتمع هذا شأنه يصبح فى حالة سباق إلى الخيانة، فتضيع مثله، ويتحلل ثم يسقط. وهذا بعض ما يترتب على القضية من عقوبات.

٧ - ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد

إن عقوبات الفطرة التى تترتب على ترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر والجهاد بالنسبة للمسلمين كثيرة:

منها ذلة الأمة الإسلامية أمام أعدائها فى الخارج، وذلة المؤمنين أمام المنافقين فى الداخل، وهذا واقع نراه الآن وتعيشه الأمة الإسلامية فى واقعها الحالى، وقد تحدث عن هذه العقوبة رسول الله ﷺ فى أكثر من حديث يقول عليه السلام: (إذا تبايعتم بالعينة وتبعتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم جهادكم سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى تعودوا إلى دينكم). وروى عنه عليه السلام: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم).

ومنها أن يعم الظلام والضلال، وتستشرى الفتنة حتى لا يعرف أحد طريقه. وفى الأثر:

(كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم؟ قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟ قال: (نعم، والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون) قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: (كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر)؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: (نعم، والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون) قالوا: وما أشد منه؟ قال: (كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرًا والمنكر معروفًا)؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: (نعم، والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون) قالوا:

وما أشد منه؟ قال: (كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف)؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: (نعم، والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون، يقول الله تعالى: بى حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران.

وهذا كله واقعنا الحالى بآثاره كلها.

ومنها أن تفترق قلوب الأمة وتصطدم نفوسها، ولا يكون بينها تلاقى على شىء أبداً، إذ بعد أن فقدت الحق الذى يجمع، فإن الباطل طرقه كثيرة مفرقة. وفى الحديث:

(لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داوود - الآية - ثم جلس وكان متكئا فقال: لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً).

وعاقبة هذا كله الهلاك والموت، إذ عندما تفقد أمة الإسلام حياتها التى هى باستجابتها لأمر الله ماذا يبقى لها ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿ **اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢٤] فالحياة فى الإسلام، وترك ما يؤدى إلى بقاء الإسلام وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد معناه الهلاك. وفى الحديث:

(مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا) رواه البخارى.

والحقيقة أن مصدر الشر كله يخرج من هذا الباب، إذ ما من انحراف إلا وراءه ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد، وكل انحراف يترتب عليه كما رأينا عقوبات فطرية كثيرة.

٨ - الموسيقى والغناء الفاسد

١ - إن سماع الموسيقى الدائم يجعل النفس البشرية فى حالة ارتخاء دائم، فتقوى بها نوازع الهوى والاخلاد إلى الراحة، وكراهية التكاليف والمشقات، وهذا خطر من الأصل على وجود الأمة وشعورها بواجبها، واستعدادها للتضحية له، وهذه أول عقوبة فطرية تترتب على هذا الانحراف، وادرس تاريخ الأمم فإنك لا تجد أمة أغرقت واستغرقت فى الموسيقى، وكان عندها روح نضال، بل تجد عندها دائما روح الاستسلام.

٢ – والموسيقى ذروة اللهو، واللهو ذروة الحياة الدنيا، فاستغراق الإنسان بالموسيقى والأنغام وإقباله الدائم عليها، يجعله فى وضع عملى من الناحية النفسية منصرفًا عن الآخرة، غافلاً عنها ناسيًا لها، وتجد مشاعره كلها منصبة على متعة الدنيا، مما يجعله بشكل عملى منصرفًا عن القيام بالتكاليف، وادرس حياة إنسان: رجل أو أنثى مولع بالموسيقى تجد نفس إنسان متثاقلة عن التكاليف، إن قام ببعضها أهمل الآخر. فالموسيقى فى الحقيقة تخدير لمشاعر الإنسان العليا، وإيقاظ لعين الدنيا فى قلب الإنسان.

٣ – إن وقت الإنسان فى العادة موزع بين العمل والإنتاج، والنوم والطعام وغيره، وما يتبقى بعد ذلك من الوقت ينبغى أن يصرفه الإنسان على إصلاح ذات نفسه، باستكماله فضائلها وكمالاتها، ومجتمع يقضى وقت فراغه فى مثل هذا يرجى له خير، أما إذا شغلت أوقات الفراغ هذه بوسائل اللهو والتسلية والباطل، أصبح الإنسان يعيش حياة الحيوان التى ليس للمخلوق فيها هدف سوى طعامه وشرابه ومتعته، والبحث عما يؤدى إلى هذا.

٤ – فإذا ما أضيف إلى هذا كله الغناء الذى ينبع عن تصور فاسد للإنسان، وعن عواطف خسيسة، وعن فكر ردىء، وعن مشاعر منحرفة، فإن هذا كله قتل للأمة وروحها، ومسخ لحقيقتها.

إن الغناء يؤثر فى تربية الأمة أكثر من تأثير القانون، وكلمة كونفوشيوس فى هذا الموضوع حكيمة: (قبل أن تخبرنى من يضع للأمة قانونها أخبرنى من يضع لها أغانيها) فالغناء أكثر أثرًا فى تربية الإنسان من أى شىء آخر، لأنه ألصق بالنفس والعواطف، فإذا كان الغناء الذى تسمعه الأمة صباح مساء، هو من النوع الذى ذكرناه، وصاحب هذا كله الموسيقى، فاقرأ على معنى الواجب عند أفراد هذه الأمة السلام، وعندما تفقد أمة حب القيام بالواجب، فهى إلى اندحار وانتحار.

إن محور وجود الإنسان فى هذه الحالة، يدور حول عبودية الذات، والحرص على المصلحة الشخصية، وتناسى كل شىء إلا (أنا).

إن فى الموسيقى والغناء الفاسد ضياع توازن الإنسان لصالح الملكات الدنيا فيه، والرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا لرفع ملكات الإنسان.

وأنظر كيف يتفاعل الناس، وكيف يتحركون، وكيف يصيحون، وكيف يستغرقون. وفيم يتأملون، والأمم تنصرف تصوراتهم وأذهانهم إذا سمعوا فلانة أو فلانا، تعرف ببساطة أن هذا كله يقف فى الطرف المعاكس لما دعا إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٥ – وما ذكرناه كله فى الحقيقة ليس لصالح الإنسان فى الأمة، وليس لصالح الأمة، بل هو لغير صالحها، وبتحطيم حيويتها وعواطفها الصحيحة، وقواها المعنوية كلها، وفى ذلك عقاب أى عقاب، وعذاب أى عذاب يعانيه الإنسان أمام كل منظر من مناظر الاستهتار بالواجب، وما أكثرها عندما تميع أخلاق الأمة على موائد اللهو والطرب، وأمام سماعه الراديو وشاشة التليفزيون.

٩ – المحاباة فى تطبيق القانون

يقول عليه الصلاة والسلام: (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) رواه الخمسة.

فالأصل فى شريعة الله أن الجميع أمامها سواء، فإذا ما حدث أن الأمة قامت حكومتها على تنفيذ القانون على بعض الناس، ومحاباة الآخرين، فإن عقوبات الفطرة تلحقها مباشرة.

ومن هذه العقوبات: أن تفقد هذه الحكومة هيبتها، وثقة الناس بها، وبالتالى سيطرتها.

ومن هذه العقوبات: أن تزداد الجرائم وتعم، لأن الناس إما شريف ناج من العقابا لشرفه فلا يبالى مهما ارتكب من جرائم، وإما ضعيف يقلد الأشراف فى جرائمهم ولا يعدم أن يجد شريفًا يشفع له.

ومن هذه العقوبات: أن يألف الناس بعد ذلك المنكر، وأن يعيشوه، ويصبح الخير غريبا، وعندئذ يبدأ الخلل يعم كل شىء.

ومن هذه العقوبات: أن يصاب الناس نتيجة لعدم طول القانون كل الناس بالخوف، إذ لا ينال كل معتد عقابه، فيخاف الإنسان على ماله وعرضه ونفسه وفى ذلك عذاب.

ومن هذه العقوبات: أن المظلوم ييأس أن ينال حقه فيتذمر، ويعم التذمر كلما ازداد الأنحراف سعة، فيحدث الشقاق بين أبناء الأمة، والنزاع والثورات على الدولة، وتضطرب الأمور ويصبح الناس ولديهم قابلية لكل داعية إلى خروج على الدولة أو الإطاحة بها.

وهذا بعض ما فى هذا الأنحراف من عقوبة.

١٠ – التفريط فى العلم

إن أى جزء من أجزاء العلوم المفروضة فرض عين، أو فرض كفاية نفرط به، يترتب

على ذلك عقوبة فطرية، وأى علم مكروه أو محرم نتعلمه أو نتساهل فى تعليمه، ويترتب على ذلك عقوبات فطرية.

فمثلا عندما نفرط فى تعلم الأخلاق الصالحة، وتعليمها، ينشأ الإنسان ولم يحصل الحد الأدنى من التهذيب، فتكون النتائج أنه يعذب غيره ويعذب نفسه، فترى الإنسان يسخر من غيره، ويؤذيه ويشتمه ويعرض عنه ولا يحترمه. وكما يعامل الناس يعامله الناس، وفى ذلك عذاب لكل فرد فى ذلك المجتمع المفرط.

وعندما نفرط فى تعلم فرض من فروض الكفاية نصبح محتاجين لغيرنا فيه، وغيرنا قد يضغط علينا ويشترط شروطًا لغير صالحنا، أو يغشنا، فيضرنا من حيث أردنا أن ننتفع منه، وفى ذلك كله عذاب.

وعندما نسمع للكتب المضرة أن تنتشر بين أيدى الناس فأول ما نصاب نتيجة لذلك أن وقت الناس يضيع فى غير الطريق الصحيح، ثم يظهر ثمرات هذه الكتب فى آراء الناس وأفكارهم، فتبعدهم عن صفاء الفطرة الإسلامية، فيختلف الناس، وتضطرب آراؤهم، ويكون بعد ذلك التخلخل والعذاب ﴿ **وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وهكذا فى كل جزء من أجزاء العلم فرطنا به، وجودًا حيث لا يجوز وجوده، وعدما حيث يجب أن يكون.

* * *

هذه أمثلة عشرة رأينا فى كل منها كيف أن الإنحراف عن أمر الله عقوبته الفطرية موجودة فيه، لا نستثنى من ذلك سنة أو واجبًا فريضة أو مكروها أو حرامًا.

إن ترك سنة السواك يؤدى إلى فساد الأسنان، وإيذاء الآخرين بالمنظر والرائحة.

وترك ستر العورة يؤدى إلى جفاف بعض الأخلاق الأساسية فى التربية الإسلامية وتبخرها كالحياء، وفى ذلك مفسدة تظهر آثارها فى أشياء كثيرة.

وترك للصلاة يترتب عليه موت العقيدة بموت القلب الذى يحملها، وموت القلب تترتب عليه الغفلة عن الله ورسوله وشريعته. والانحراف عن العبودية لله سقوط فى عبودية غيره من هوى وصنم وإنسان وطبقة، وعبودية الإنسان للإنسان أو للشيطان شىء فظيع، إذا لا تبقى للإنسان قيمة، ولا يبقى له مثل، بل يفقد كل يوم شيئًا من أصالة فطرته لتستقر حيوانيته بعد ذلك.

إن الناس لو عقلوا ما يصيبهم نتيجة الانحراف عن الإسلام أو عن أى جزء فيه لما

اطمأنت قلوبهم وعقولهم إلا على طاعة أمر الله باتباع شريعته، ولكنهم لا يزالون ينحرفون ويعذبون ويظلمون أنفسهم ولا يعقلون.

* * *

وقد سمى الأستاذ سيد قطب هذا المعنى وهو ما يترتب على الانحراف عن دين الله والإيمان به (بعقوبة الفطرة) وكتب فصلا ممتعا حول هذا الموضوع فى كتابه (الإسلام ومشكلات الحضارة) ننقله كله لما فيه من حجة بالغة ونذير مبين.

يقول:

«لم يكن بد وقد شرد الإنسان عن ربه ومنهجه وهداه.. وعبد الإنسان نفسه واتخذ إلهه هواه. وجهل الإنسان نفسه كذلك، وراح يخبط فى التيه بلا دليل. وأقام منهج حياته على قواعد من هذا الجهل، ومن ذلك الهوى. واعتدى على فطرته التى فطره الله عليها، فى حمومة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه.

لم يكن بد وقد رفض الإنسان تكريم ربه له، فاعتبر نفسه حيواناً -- وقد أراده الله إنسانا – وجعل نفسه آلة – وقد أراده الله مهندسا للآلة – بل جعل الآلة الها يحكم فيه بما يريد. وجعل المادة إلهاً، يحكم فيه بما يريد. وجعل الاقتصاد الها يحكم فيه بما يريد – وقد أراد له ربه أن يكون سيد المادة وسيد الاقتصاد. ولكنه رفض هذا التكريم كله لينجو فقط من الكنيسة، ويشرد من اله الكنيسة!

ولم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيوانا لطيفا – كما أن الرجل حيوان خشن – غاية الالتقاء بينهما اللذة، وغاية الاتصال بينهما المتاع. ونسى أن الله يرفع هذه العلاقة ويطهرها ويزكيها، وينوط بها امتداد الحياة من جهة، وترقية الحياة من جهة أخرى، ويربط بها عجلة التمدن الإنسانى، ويجعل من الأسرة محضن المستقبل، ويجعل من المرأة حارسة الإنتاج النفيس نتاج المادة الإنسانية.. ويصونها من التبذل كى لا تكون مجرد أداة لذة. ويصونها من الاشتغال بانتاج المواد فى المصنع وهى فى الأسرة تنتج وتحرس مادة (الإنسان).

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه (الإنسانية) ليحصر طاقته فى الإنتاج المادى، وأقام حياته كلها على أساس مادى، وتصور مادى، وكبت الجوانب الحية المرفرفة اللطيفة فى حسه، والتى وهبها الله له لأنه (الإنسان) الخليفة الفذة فى هذا الكون، والتى تجعل المتناقضات كلها فى تناسق بديع.

لم يكن بد وقد أقام الإنسان نظامه على الربا، ليكد القطيع البشرى كله فى خدمة بضعة آلاف من مؤسسى البيوت المالية والبنوك والمرابين، تعود إليهم حصيلة كد

البشرية فى أقاصى الأرض وهم قابعون وراء المكاتب الفخمة، والنظريات الاقتصادية، وجميع أجهزة التوجيه والإعلام.

وفى النهاية.. لم يكن بد وقد اتخذ الإنسان له آلهة من دون الله فاتخذ من المال إلهاً، ومن الهوى إلهاً، ومن المادة إلهاً، ومن الإنتاج إلهاً، ومن الأرض إلهاً، ومن الجنس إلهاً، ومن المشرعين له آلهة يغتصبون اختصاص الله فى التشريع لعباده، فيغتصبون بذلك حق الألوهية على عباد الله.. كل هذا الآلهة اتخذها وعبدها، ليهرب من الله ويستنكف عن عبادته!

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كله بنفسه أن تحل به عقوبة الفطرة.

وأن يؤدى ضريبة المخالفة عن ندائها العميق.. وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة.

وقد كان..

كان.. وأداها من نفسه وأعصابه. ومن بدنه وعافيته. ومن سعادته وطمأنينته ومن مواهبه وخصائصه. ومن دنياه وآخرته.

أداها - وفى الأمم التى بلغت ذروة الحضارة المادية بالذات - تناقصا فى النسل يهدد بالانقراض. وتناقصاً فى الخصائص الإنسانية يوحى بالنكسة إلى البربرية. وتناقصا فى الذكاء والمستوى العقلى يهدد بانهيار العلم الذى قامت عليه الحضارة، وبانهيار الحضارة ذاتها فى النهاية.

وظهرت آثار الكبت للطاقات الأخرى التى لا تحتاج إليها الصناعة بطرائقها الحاضرة، وآثار القلق على المستقبل فى المجتمع المادى المتناحر، وآثار الخواء الروحى الذى تفرضه الفلسفات والأوضاع فى المدنية الكافرة.. ظهرت آثارها فى صورة الأمراض العصبية والعقلية والنفسية، والعته والجنون والشذوذ والانحراف والجريمة.

وظهرت آثار التوجيه المتواصل إلى حيوانية الإنسان وماديته وسلبيته، وإطلاق شهواته وغرائزه من كل ضابط.. ظهرت فى صورة الانحلال واللامبالاة والسلبية، وقبول الديكتاتوريات وحياة القطيع التى لا هدف لها إلا الفساد واللقاح والطعام والشراب.

وكتب على البشرية أن تؤدى الضريبة فادحة صارمة ثقيلة: حروبا رهيبة ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين. وأزمات تلو أزمات.. أزمات إذا قل الإنتاج، وأزمات إذا زاد الإنتاج، أزمات إذا مال الميزان التجارى إلى العجز، وأزمات إذا مال الميزان التجارى إلى الزيادة. أزمات إذا نقصت المحصولات، وأزمات إذا فاضت المحصولات. أزمات إذا قل النسل، وأزمات إذا زاد النسل. وتخبط من هنا وتخبط من هناك. وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار. وضغط

على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم، فيخرون أمواتاً بالسكتة وتفجر المخ، أو يخرون اشلاء أو مجانين، كما لو كانت قد سلطت عليهم قوى المردة الاسطورية من حيث لا يحتسبون.. وما سلطت عليهم سوى أنفسهم. وما كان إلا نذير الله الذى لم تتفتح له القلوب والآذان:

﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨].

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ* ﴾ [سورة العصر].

* * *

والآن نأخذ فى عرض أقوال الشهود عن بروز آثار الحضارة المادية وتضخيمها فى الأمم التى وصلت إلى قمة الحضارة.. فنستوفى بهذا عناصر المأساة الأربعة – كما أشرنا إليها فى مقدمة هذا البحث.

وقد أخذنا شهودنا من درجات متفاوتة. ومن بيئات مختلفة: منهم العالم المحقق المؤمن بالعلم، المعتمد عليه فى مواجهة المأساة.. ولا سواه.. ومنهم الفيلسوف الذى لا يؤمن بالدين. ومع ذلك يرى على ضوء العقل الخطر الذى تتردى فيه البشرية.. ومنهم الباحث المؤمن بالدين وبالعقل وبالعلم وبفطرة الإنسان العارف فى الوقت نفسه بمكان كل من هؤلاء فى مجال المعرفة ومجال العلاج.. ومنهم الطبيبة

التى تقدر جدية الموضوع فتعالجه بالجد الذى يستحقه.. ومنهم الصحفى الذى لا يعنيه من المأساة إلا العرض الصحفى والتشويق والاغراء.

وقد اكتفينا بهذه الشهادات من عشرات مثلها. لأنه لا سبيل لإثبات كل الشهادات. واستدعاء كل الشهود، فى فصل من كتاب!

* * *

يبدأ الدكتور الكسيس كاريل شهاته بالكلام عن مخالفة البشر لما يسميه: (القوانين الطبيعية) - ونسميه نحن: (قوانين الفطرة التى فطر الله الناس عليها) - والعواقب التى لابد أن يلقاها من يخالف هذه القوانين الصلبة التى لا تلين. ولا تترك مخالفيها بلا عقوبة، ثم يأخذ فى بيان ما حل بالبشرية فعلاً من هذه العقوبة:

(قبل أن أبدأ هذا الكتاب، كنت أدرك تماماً صعوبة ها العمل بل استحالته تقريباً. ولكننى شرعت فيه لأننى كنت أعلم أن شخصاً ما لابد سيؤديه.. **لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية فى مجراها الحالى، لأنهم آخذون فى التدهور والانحطاط. لقد فتنهم جمال علوم الجماد. أنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية - وهى قوانين أكثر غموضا وإن كانت تتساوى فى الصلابة مع القوانين الدنيوية - كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم.** ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوى ولأترابهم أبناء آدم، ولذاتهم الداخلية وتلك التى تتصل بأنسجتهم وعقولهم. فإن الإنسان يعلو كل شىء فى الدنيا فإذا انحط وتدهور فإن جمال الحضارة بل حتى عظمة الدنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى. لهذه الأسباب كتبت هذا الكتاب) (ص ١٠، ١١).

(الإنسان نتيجة الوراثة والبيئية وعادات الحياة والتفكير التى يفرضها عليه المجتمع العصرى.. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى جسمه وشعوره، وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقتها التكنولوجيا، وإن مثل هذه البيئة تؤدى إلى انحلاله. وإن العلم والميكانيكا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة، وإنما نحن وحدنا المسئولون. لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع، لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى، الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائماً.. إن مبادىء (الدين العلمى) والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة البيولوجية.

.. فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتياد الأرض المحرمة.. هى إضعاف السائل. ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار. لأن علوم الجماد

قادتنا إلى أرض ليست لنا. فقبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر. ولقد أصبح الفرد ضيقا متخصصاً فاجراً، غبياً، غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته).. (ص٣٢٢).

(إن الصفة الغالبة على الفرد فى الحضارة العصرية هى الافراط فى النشاط الذى يوجه كله نحو الجانب العملى من الحياة. كما يتصف الفرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء.. وأيضاً بنوع من الضعف العقلى، الذى يتركه تحت تأثير البيئة التى يتفق وجوده فيها.. ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق).. (ص ٣٦).

(يبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة. ففى كل بلد يوجد تناقص فى المستوى العقلى والأدبى لأولئك المسئولين عن الشئون العامة) (ص ٣٧).

(إننا قلما نشاهد أفرادا يتبعون مثلاً اخلاقياً أعلى فى تصرفاتهم فى المدنية العصرية). (ص ١٦٠).

(إن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائى بالجمال فى عملهم أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون، لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك. إن الصناعة - بشكلها الحالى - حرمت العامل من الابتداع والجمال).. (ص ١٦٢).

(إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفى والجمالى أو الدينى يخلق أشخاصاً فى المرتبة الدنيا ذوى عقول ضعيفة غير سليمة. وبالرغم من أن التعليم العقلى يهيأ الآن لكل فرد، إلا أننا مازلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص فى كل مكان) (ص ١٦٨).

(فأكثر الناس تمدينا يظهرون شكلاً بدائياً فقط من الشعور. أنهم قادرون على العمل السهل الذى يؤمن حياة الفرد فى المجتمع العصرى. انهم ينتجون ويستهلكون ويرضون شهواتهم الفسيولوجية. وهم أيضاً يسرون بمشاهدة المباريات الرياضية والأفلام السينمائية الصبيانية الخشنة. كما يسرون حينما ينتقلون بسرعة من مكان إلى آخر بدون بذل أى جهد، وحينما يتطلعون إلى الأشياء السريعة الحركة. انهم ناعمون عاطفيون شهوانيون، قساة، مجردون من الأحساس الأدبى والدينى والشعور بالجمال). (ص ١٦٩).

(إن عدم التناسق فى دنيا الشعور ظاهرة مميزة لعصرنا).. (ص ١٧٠).

(فى استطاعة التفكير أن يولد أمراضاً عضوية بصفة عامة. ومن ثم فان عدم استقرار الحياة العصرية والانفعال الدائم وانعدام الأمن تخلق حالات من الشعور تجلب الاضطرابات العصبية والعضوية للمعدة والأمعاء. كذا نقص التغذية، وتسرب الجراثيم

المعوية إلى الدورة الدموية. والتهاب الكلى وما يصحبه من أمراض الكلى والمثانة إن هى إلا النتائج البعيدة لعدم التوازن العقلى والأدبى.. ومثل هذه الأمراض تكاد تكون غير معروفة فى الجماعات التى تحيا حياة بسيطة وليست على القدر الذى ذكرناه من الانفعال، كما أن القلق فيها غير دائم.. وبالمثال فإن الأشخاص الذين يحافظون على سلام ذاتهم الباطنية، وسط ضوضاء المدينة الحديثة محصنون ضد الاضطرابات العصبية والعضوية) (ص ١٧٧).

(يجب أن يظل النشاط الفسيولوجى خارج حقل الشعور. إذ أنه لا يلبث أن يصاب بالاضطراب حينما نوليه اهتمامنا. ولذلك فان (التحليل النفسى) حينما يوجه عقل المريض نحو نفسه قد يزيد من حالة عدم التوازن. ومن ثم فانه من الأفضل أن يهرب الإنسان من نفسه ببذل جهد لا يشتت عقله بدلا من الاستغراق فى تحليل نفسه.. إذ أننا حينما نوجه نشاطنا نحو غاية محددة نجعل وظائفنا العقلية والعضوية كاملة التناسق. لأن توحيد الرغبات وتوجيه العقل نحو غاية واحدة ينتج ضرباً من السلام الداخلى. ولكن الإنسان يشتت نفسه بالتفكير مثلما يشتتها بالعمل.. ومع ذلك فإنه يجدر به ألا يقنع بتأمل جمال المحيط، أو الجبال والسحب، وروائع ما أنتجه الفنانون والشعراء، والمبادىء السامية التى تمخضت عنها عقول الفلاسفة، والعمليات الحسابية التى تعبر عن القوانين الطبيعية.. وإنما يجب عليه أيضاً ان يكون الروح التى تكافح لبلوغ مثل أدبى عال، وتبحث عن النور فى ظلمات هذا العالم وتسير قدماً فى طريق الدين، وتنبذ نفسها لكى تفهم الأساس غير المنظور لهذا العالم. إن توحيد نشاط الشعور يؤدى إلى تناسق أعظم بين الوظائف العضوية والعقلية.

ولهذا ندر أن توجد الأمراض العصبية وأمراض التغذية، والإجرام، والجنون، بين الجماعات التى نما فيها الشعور الأدبى والعقلى فى وقت واحد، كما يكون الفرد أكثر سعادة فى مثل هذه الجماعات).. (ص ١٧٧، ١٧٨).

(إن الحضارة لم تفلح حتى الآن فى خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلى، وترجع القيمة العقلية والروحية المنحطة لأغلب بنى الإنسان – إلى حد كبير – إلى النقائص الموجودة فى جوهم السيكلوجى. إذ أن تفوق المادة، ومبادىء دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق.. كما أن الجماعات الاجتماعية الصغيرة التى لها شخصيتها وتقاليدها الخاصة تحطمت بفعل التغيرات التى طرأت على عاداتها. وقد تدهورت الطبقات المثقفة لانتشار الصحف انتشاراً واسع المدى كذا الأدب الرخيص. والراديو ودور السينما.. ومن ثم فإن ازدياد الطبقة الغبية آخذ فى الازدياد أكثر فأكثر

بالرغم من كمال المناهج التى تدرس فى المدارس والكليات والجامعات.. ومن العجيب أن بلادة الذهن توجد غالباً حيثما تتقدم المعرفة العلمية!

إن أطفال وطلبة المدارس يكونون عقلهم من البرامج السخيفة التى توضع لوسائل التسلية العامة. ومن ثم فان البيئة الاجتماعية تناهض نمو العقل بكل قوتها بدلا من أن تعمل على هذا النمو).. (ص ١٨٤).

(كما أن الشذوذ الجنسى آخذ فى الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانبا، وأصبح المحللون النفسانيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية. ولم يعد هناك فرق بين الخطأ والصواب. والعدل والظلم. فالمجرمون يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان، وليس هناك من يبدى اعتراضاً على وجودهم.. ولقد جعل القساوسة الدين شبيها بالتموين، لكل فرد منه قسط معين.. وحطموا الأسس الغامضة. ولكنهم لم ينجحوا فى اجتذاب القوم العصريين. ومن ثم فانهم يعظون عبثا أصحاب الأخلاق الضعيفة فى كنائسهم نصف الفارغة كل أسبوع.

إنهم قانعون بدور رجل البوليس الذى يؤدونه. فهم يساعدون الأغنياء ومصالحهم لكى يحفظوا إطار المجتمع الحالى، أو يتملقون شهوات الجمهور مثلما يفعل الساسة)!.. (ص ١٨٦).

(ليس العقل قوياً كالجسم. ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة. ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها. وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم.. ويقول س. و. برس (ان شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر.

وفى الولايات المتحدة تبدى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين. ففى كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالى ستة وثمانين ألف حالة جديدة. فإذا استمر عدد المجانين فى السير على هذا المعدل فان حوالى مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً أو آجلاً!.

ففى عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠,٠٠٠ مجنون كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين والمحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١,٥٨٠ وكان عدد مطلقى السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠,٩٣٠، ولا تشمل هذه الاحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المستشفيات الخاصة، وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠,٠٠٠ شخص

ضعاف العقول ولقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية عن أن ٤٠٠,٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة والافادة مما يتلقون من علم.. وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير. ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الاحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية. **وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التى يواجهها المجتمع العصرى. فإن أمراض العقل خطر داهم: إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى. بل والتيفوس والطاعون والكوليرا. فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب بل لأنها ستضعف حتما التفوق الذى تتمتع به الأجناس البيضاء حالياً**.. على أنه يجب أن يكون مفهوماً أنه **لا يوجد ضعاف عقول** ومجانين بين المجرمين بالكثرة التى يوجد بها بين أفراد الشعب! صحيح أن عدداً كبيراً ممن يعانون من النقائص العقلية موجود فى السجون. بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة مازالوا مطلقى السراح.

ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذى تعانى منه المدنية العصرية وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤدى مطلقا إلى تحسين صحتنا العقلية).. (ص ١٨٧، ١٨٨).

(هناك أشكال معينة من الحياة العصرية تؤدى مباشرة إلى الانحلال كما توجد أحوال اجتماعية تهلك الجنس الأبيض).. (ص ٢٦٤).

(إن فى استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عما إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موجودة فى الرجال العصريين! بل أن بعض المراقبين يرتابون فى حقيقتها (فتيودور دريزر) يعتبرها اسطورة خرافية، والحقيقة أن سكان المدينة الحديثة يظهرون تشابهاً كبيراً فى ضعفهم العقلى والأدبى. فمعظم الأفراد ينتمون إلى طراز واحد. إنهم خليط من الأشخاص مضطربى الأعصاب بليدى الشعور، مغرورين، معدومى الثقة بأنفسهم، أصحاب قوة عظيمة وإن كانوا سريعى التعب. يعانون حدة الدوافع الجنسية برغم ضعفهم وشذوذهم أحياناً).. (ص ٣١٦).

* * *

هذه فقرات مقتضبة من شهادة دكتور كاريل خاصة (بالإنسان) عامة فى الحضارة العصرية.. وهناك جانب آخر أحببنا أن نفرده وحده.. وهو شهادته فيما

يختص بقضية المرأة وعلاقات الجنسين فى هذه الحضارة وأخطارها على وجود الجنس البشرى، وعلى مستواه العقلى والأدبى.

ونحب أن ندعه هو يدلى بشهادته (العلمية) دون تعليق:

(علينا أن نستوثق من الكيفية التى ستؤثر بها طريقة الحياة فى مستقبل الجنس. لقد كان استجابة النساء للتعديلات التى أدخلتها الحضارة الصناعية على عادات الأسلاف سريعة قاطعة، إذ نقص معدل المواليد فوراً. وقد تبين أثر ذلك بوضوح، كما لمست نتائجه الخطيرة فى الطبقات الاجتماعية وفى الأمم التى سبقت غيرها فى الانتفاع بالتقدم الذى حققته – إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة – بتطبيق الاكتشافات العلمية. فالتعقيم الاختيارى ليس جديداً فى تاريخ العالم. فقد عرف فى مرحلة معينة من مراحل المدينة السابقة.. إنه ظاهرة علمية نعرف دلالتها).. (ص ٣٧).

(إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ومن وجود الرحم والحمل أو من طريقة التعليم. إذا أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك.. إنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية المدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً وأن يمنحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة.. والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل. فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها. وفوق كل شىء بالنسبة لجهازها العصبى. فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبى. فليس فى الامكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها. ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى. فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور. فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال. فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة).. (ص ١١٤).

(ان الأب والأم يساهمان بقدر متساو فى تكوين نواة البويضة التى تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد. ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النووية كل البروتوبلازم المحيط بالنواة.. وهكذا تلعب دوراً أهم من دور الأب فى تكوين الجنين).. (ص ١١٥).

(إن دور الرجل فى التناسل قصير الأمد. أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر وفى خلال هذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيماوية ترشح من دم الأم من خلال أغشية

الخلاص[1]. وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التى تتكون منها أنسجته فإنها تتسلم مواد معينة تفرزها أعضاء الجنين. وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطرة. فحقيقة الأمر أن الجنين ينشأ تقريباً من الأب مثلما ينشأ من الأم: فان مخلوقاً من أصل غريب – جزئيا – قد اتخذ له مأوى فى جسم المرأة. فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل. وقد تتسمم المرأة فى بعض الأحيان بواسطة جنينها، كما ان أحوالها الفسيولوجية والسيكولوجية تعدل به دائما.. وعلى أى حال يبدو أن النساء – من بين الثدييات – هن فقط اللائى يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين. كما أن النساء اللاتى لم يلدن لسن متزنات توازناً كاملاً كالوالدات. فضلا عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن.. صفوة القول أن وجود الجنين، الذى تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم، بسبب صغرها ولأنها – جزئياً – من أنسجة زوجها، تحدث أثراً كبيراً فى المرأة. **إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية. مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة. ومن ثم فمن سخف الرأى أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة. ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلى والمادى ولا أن تبث فى نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان وتبث فيهم.. يجب أن يبذل المربون اهتماماً تشديداً للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى. كذا لوظائفها الطبيعية. فهناك اختلافات لا تنقضى بين الجنسين. ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين)** (ص ١١٦، ١١٧).

(وليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التى لا تشتمل على الحمل فقط. بل أيضاً على رعاية صغارها).. (ص ٣٦٨، ٣٦٩).

وأخيراً:

(من المعروف أن الإفراط الجنسى يعرقل النشاط العقلى. ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة للنمو، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته.. ولقد أكد فرويد عن حق الأهمية القصوى للدوافع الجنسية فى وجوه نشاط الشعور. ومع ذلك فان ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص. ومن ثم يجب ألا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازا عصبيا قويا وسيطرة على أنفسهم.. وبينما يصبح الضعفاء المعتلو

---

(١) الخلاص: أى المشيمة.

الأعصاب غير المتزنين أكثر شذوذاً عندما تكبت شهواتهم الجنسية فإن الأقوياء يصيرون أكثر قوة بممارسة هذا الشكل من الزهد) . . (ص ١٧٤) .

* * *

ولنأخذ شهادة (ول ديورانت) الكاتب الأمريكى المتفلسف . . وهو رجل لا يمكن أن يقال إنه من أعداء هذه الحضارة . فهو شديد الاعجاب بالتقدم الذى تمثله هذه الحضارة فى مجموعها وهو يبدو معارضا للدين فى جملته، كما أنه ظاهر العداء للاسلام بصفة خاصة . وقد نشرت له جامعة الدول العربية ترجمة أجزاء من كتابه (قصة الحضارة) . ويستطيع قارىء اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الاعجاب بهذه الحضارة فى جملتها كما يلاحظ موقفه من الدين جملة وعداءه الظاهر للإسلام خاصة .

ومع هذا كله فهو يؤدى هذه الشهادة عن هذه الحضارة فى كتابه (مناهج الفلسفة) :

(وثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطرة لأننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الأغراض، وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الدينى وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا ويبدو العالم كله مستغرقاً فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التى أقلقت بال سقراط، نعنى : كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماجن من جهة وبهذا الجنون النووى من جهة أخرى حين نفقد الفلسفة التى بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التى توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات . إننا نهجر فى لحظة مثاليتنا السليمة ونلقى بأنفسنا فى هذا الانتحار الجماعى للحرب وعندنا مئة ألف سياسى وليس عندنا (رجل حكم) واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل . ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكر فى ذلك أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . أننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التى أسكرتنا بخمر القوة ولن ننجو منها بغير الحكمة) . . (ص ٦ – ٧ ج١) .

(وأختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر فى تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقى قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج لأن النكاح كان يؤدى إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ولم يكن الوالد مسئولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذه فى التغير نتيجة هذا العامل . ويجب على القانون الأخلاقى فى المستقبل أن يدخل فى حسابه هذه التسهيلات الجديدة التى جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة!) (ص ١٢٥ ج١) .

(فحياة المدنية تفضى إلى كل مثبط على الزواج فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو الجنسى يتم مبكراً عما كان من قبل، كما يتأخر النمو الاقتصادى. فإذا كان قمع الرغبة شيئًا علميًا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً وغير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة. وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعاً للسخرية ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفا وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس. لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى ولم يعد العالم المدنى يحكم به) .... (ص ١٢٦ – ١٢٧).

(ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولاً عنه. ولا فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة فى التعدد لم تهذب لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة. ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء، المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الحلال الذى يحسونه فى حصار قلعة مستسلمة. ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية.

وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله. وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم خلقه الإنسان وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر. غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الاباحية وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب المكشوف تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين وهم فى حمى الفوضى الصناعية من حمى الزواج ورعايته للصحة).

(ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة. لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر. ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل نظامًا دوليًا مجهزاً بأحدث التحسينات ومنظمًا بأسمى ضروب الإدارة العلمية. ويبدو أن العلم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها) .. (ص ١٢٧ – ص ١٢٨).

وأكبر الظن أن هذا التجدد فى الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم داروين على المعتقدات الدينية. وحين اكتشف الشبان والفتيات - وقد أكسبهم المال جرأة - أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا فى العلم ألف سبب للتشهير بالدين. وأدى التزمت فى حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل فى الأدب، وعلم النفس صور الجنس مرادفاً للحياة. وقد كان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون فى مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنباً؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول: أليس من الاجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها؟ فقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة)..
(ص ١٣٤).

(وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل فى هذا التغيير. ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين فى ظل الصناعة والتجارة، وعودت الجنود الوحشية والإباحية. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقى. وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية، وحطمت الإيمان بالعناية الالهية، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية. وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة، ظهر جيل مخدوع، وألقى بنفسه فى أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقى.. وأصبحت الحكومات فى واد، والشعب فى واد آخر، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها، واستهدفت الصناعات الربح بصرف النظر عن الصالح العام، وتجنب الرجال الزواج خشية مسئوليته، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة، وإلى طفيليات فاسدة، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة، تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية فى الماضى، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية فى الفن والحياة)..... (ص ١٣٥ - ١٣٦).

(لما كان اليوم هو عصر الآلة فلابد أن يتغير كل شىء. فقد قل أمن الفرد فى الوقت الذى نما فيه الأمن الاجتماعى، وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمنا مما كانت، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة، مما يجعل الخطر جاثماً كل لحظة. أما الشباب الذى أصبح أكثر إقداماً، وأشد غروراً من قبل، فهو عاجز مادياً، وجاهل اقتصادياً، إلى حد لم يسبق له مثيل. ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال. ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفاً (وقد مرت السنوات) ومع ذلك لم تمتلىء الجيوب بما يكفى للزواج. ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة فيحتفل الزواج بموت الحب.

(حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل فى تيار المغامرات الواهية فهى واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية. وهدايا من الجوارب، وحفلات من الشمبانيا فى نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية. وقد ترجع حرية سلوكها فى بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية. فلم تعد تعتمد على الرجل فى معاشها وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله فى فنون الحب. فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج المنتظر. متردداً. إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للانفاق عليهما معاً فى مستواهما الحاضر من المعيشة؟

(وأخيراً تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ويعقد عليها لا فى كنيسة. لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جاثماً على إيمانهما المهجور أثر فى قلبيهما. إنهما يتزوجان فى قبو المكتب البلدى (الذى يفوح منه عبير الساسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة. إنهما يرتبطان بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة، لهما الحرية فى أى وقت فى التحلل منه. فلا مراسيم مهيبة. ولا خطبة عظيمة، ولا موسيقى رائعة، ولا عمق ولا نشوة فى الانفعال تحيل ألفاظ عودهم إلى ذكرياتهم لا تمحى من صفحة الذهن. ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً ويتوجهان إلى البيت فى صخب.

(إنه ليس بيتاً! فليس ثمة كوخ بنتظر الترحيب بهما أنشىء وسط الحشائش النضرة، والأشجار الظليلة. ولا حديقة تنبت لهما الزهور والخضروات التى يشعران بأنها أبهى وأحلى، لأنها من زرع أيديهما. بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلاً كأنهما فى زنزانة سجن، فى حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيهما فيها طويلاً ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما. ليس هذا المسكن شيئًا روحيًا كالبيت الذى كان يتخذ مظهراً ويكسب روحًا قبل ذلك بعشرين عامًا (الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩) بل مجرد شىء مادى فيه من الجفاف والبرودة ما تجده فى مارستان. فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع لا ينبت لهما الصيف والزرع النضر بل سيلاً من المطر. ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح فى السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر بل المتاعب والذكريات الحزينة.

(وتصاب المرأة بخيبة أمل. فهى لا تجد فى هذا البيت شيئًا يجعل جدرانه تحتمل فى الليل والنهار ولا تلبث إلا قليلاً حتى تهجره فى كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر. ويخيب أمل الرجل، فهو لا يستطيع أن يتجول فى أنحاء هذا البيت يعزى شعوره ببنائه وإصلاح ما تصاب به أصابعه من دق المطارق. ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التى كان يعيش فيها وهو أعزب، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبهها

عادياً تلك العلاقات غير البريئة التى كان يعقدها مع المستهترات من النساء، فلا جديد فى هذا البيت، وليس فيه ما ينمو، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته. إذ أين يمكن أن يلعب الطفل، وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة فى المدينة؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب.. فيعتزمان منع النسل.. إلى أن يقع بينهما الطلاق!

(ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح - لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة - يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ومقومات الحياة.. يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع. وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان، وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية ببعثها ضغط الحياة الساخر.. وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف. فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته).. (ص ٢٢٣ - ٢٢٦).

(ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبروننا عن نتائج تجاربنا. أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده. فنحن غارقون فى تيار من التغيير، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها وأى شىء قد حدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم. فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء، فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة. ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً. وسيزداد الزواج الحر، مباحاً كان أم غير مباح ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل. فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يغازلها أحد. سينهار (المستوى المزدوج)، وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج. سينمو الطلاق، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة. ثم يصاغ نظام الزواج بأسرٍه فى صور جديدة أكثر سماحة. وعندما يتم تصنيع المرأة **ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً فى كل طبقة يضحى الحمل أمراً عارضاً فى حياة المرأة** أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت.. وهذا كل شىء!) (ص ٢٣٥ - ٢٣٦).

* * *

والآن نسمع شهادة الأستاذ أبى الأعلى المودودى فى بعض جوانب هذه الحضارة وما أنشأته من آثار تنطوى على تهديد مدمر للحياة الإنسانية ذاتها فضلاً عن خصائص الإنسانية.

من كتاب (الحجاب) :

(إن أساطين الفلسفة والأدب، وأقطاب العلوم الطبيعية الذين رفعوا لواء الإصلاح فى القرن الثامن عشر، كانوا – كما سبق لنا الاشارة إليه – يجابهون نظامًا للتمدن فيه أنواع من القيود والسدود، وفيه صلابة من غير مرونة، وعسر من غير يسر، طافحًا بالتقاليد التى لا يقبلها الطبع والضوابط الجامدة، والطرق المناقضة للفطرة والعقل. وزاد طينه بلة انحطاط القوم المتواصل على طول القرون فجعله عقبة كأداء فى كل طريق للرقى. فبجانب كانت النهضة العلمية والعقلية الجديدة تبعث فى نفوس الطبقة المتوسطة أشد الميل إلى التقدم والنبوغ بالعمل والاجتهاد الذاتى. وبجانب آخر كانت على رؤوسهم طبقة الأمراء والزعماء الدينيين تبالغ فى شدهم بالأغلال التقليدية. فمن الكنيسة الى الجندية والقضاء، ومن قصور الامارة إلى المزارع ودور التجارة.. كل شعبة من شعب الحياة وكل مؤسسة للتنظيمات الاجتماعية كانت تجرى من نظام يتيح لبعض الطبقات المخصوصة بحجة امتيازها القديمة وحقوقها المتوارثة أن تعسف وتجور على من لا ينتمى إليها من العاملين الناهضين، فتذهب بثمار أعمالها، وتستأثر بنتاج مواهبهم وكفاءاتهم. فكل محاولة يقوم بها القائمون لإصلاح تلك الحال كانت تخيب وتفشل بازاء أثرة الطبقات المسيطرة وجهالتها.

لهذه الأسباب كلها غدت الطبقات الناشدة للاصلاح تثور فى نفوسهم مع الأيام ثائرة الانقلاب الجامحة حتى غلبت عليهم وعمتهم آخر الأمر نزعات البغى والثورة على هذا النظام الاجتماعى بجميع شعبه وأجزائه.. وراج بين الناس نظرية متطرفة فى الحرية الشخصية، ترمى إلى إعطاء الفرد الحرية التامة، والإباحية المطلقة بازاء المجتمع، فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق فى عمل ما يشاء، والحرية الكاملة فى ترك ما يشاء، وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية.. إلخ) (ص ٦٠ – ٦١).

(ومن غرائب الاتفاق أنه قد واتت هذا الانقلاب الفكرى – وهو فى صدر شبابه – أسباب تمدنية أخرى. ففى هذا العصر قامت الثورة الصناعية الشهيرة، وأعقبتها تغيرات هامة فى الحياة الاقتصادية كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ما هو عون على تحويل وجهة سير الاجتماع الحديث إلى حيث تريد الآداب الانقلابية أن تحولها. وذلك أن تصور الحرية الشخصية الذى نشأ عليه النظام الرأسمالى جاءت الاختراعات الميكانيكية وإمكانات وفرة الإنتاج الصناعى تحكمه وتقويه. فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسسات صناعية وتجارية كبرى وتحولت المراكز الجديدة للصناعة والتجارة إلى مدن عامرة وأصبح ينجر إليها من القرى والأرياف أضعاف الملايين من النفوس. وغلت تكاليف الحياة غلاء فاحشًا وارتفعت أسعار الحاجيات للحياة من المطعم والملبس والمسكن إلى ما فوق طاقة العامة زد على ذلك أن

أضيف إلى حاجيات الحياة ما لا يحصى من وسائل المعيشة المتجددة لأسباب راجع بعضها إلى ارتقاء التمدن وبعضها إلى مساعى أهل الثروة.

(ولكن النظام الرأسمالى لم يوزع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المتع واللذات وأدوات الزينة والزخرفة التى أدخلها فى لوازم الحياة بل هو لم يهيىء للعامة من وسائل المعاش ما يسدون به عوزهم بسهولة من حاجات الحياة الحقيقية - وهى السكنى والطعام واللباس -- فى تلك المدن التى قد زج بهم إليها) . .

(كان من نتائج ذلك كله أن أصبحت المرأة كلاً على زوجها، وأصبح الولد عبئًا على أبيه، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه فضلاً عن أن يعول غيره من المتعلقين به. وقضت الأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحد من أفراد المجتمع عاملاً مكتسبًا. فاضطرت جميع طبقات النساء -- من الأبكار والأيامى والثيبات - أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويدا) .

(ولما كثر بذلك اختلاط الصنفين، واحتكاك الذكور والإناث، وأخذت تظهر عواقبه الطبيعية فى المجتمع، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية، وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق. فهدأ من قلق الآباء والبنات والأخوة والأخوات، والبعولة والزوجات، وجعلا نفوسهم المضطربة تطمئن إلى أن الذى هو واقع أمام أعينهم لا بأس به فلا يوجسوا منه خيفة إذ ليس هبوطًا وترديًا، بل هو نهضة وارتقاء، وليس فسادًا خلقيًا بل هو عين اللذة والمتعة التى يجب أن يقتنيها المرء فى حياته، وأن هذه الهاوية التى يدفع بهم إليها الرأسمالى ليست بهاوية النار، بل هى جنة تجرى من تحتها الأنهار) .

(وما وقف الأمر عند هذا الحد بل جاء النظام الرأسمالى الذى رفعت قواعده على هذا التصور للحرية الشخصية فمنح الفرد حقًا مطلقًا من كل قيد أو شرط فى اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق وتبعته فلسفة الأخلاق. فأباحت له كل وسيلة يمكن أن تتخذ لجمع الأموال، وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل والطرق مهلكة أفراد كثيرين. . وبذلك تألف نظام التمدن من أوله إلى آخره على صورة تؤثر الفرد على الجماعة من كل وجهة وليس فيها ضمان للمحافظة على مصالح الجماعة بإزاء أثرة الفرد فانفتحت السبل على إخوان الطمع والأثرة ليغيروا ويعتدوا على المجتمع كيف يشاءون فعمد هؤلاء إلى الغرائز الإنسانية يتحسسون فيها مواطن الضعف والخلل وراحوا يتفننون فى استغلالها لأغراضهم. فقام واحدهم وروج فى الناس سيئة الخمر جلبا للثروة إلى جيبه ولم ينهض منهم من ينقذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون.

وقام آخر وابتلى خلق الله بآفة الربا، ونصب شبكته فى القاصية والدانية وما هنالك من يدفع عن دماء الناس ضر هذا العلق بل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدويبة الفتاكة كى لا يسلم منها أحد بقطرة من دمه وجاء ثالث وأشاع فى المجتمع طرقاً مبتكرة للقمار حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عنصره وما ثمة من يتقدم لحفظ الحياة الاقتصادية من هذه الحمى المحرقة).

(وما كان من الممكن فى هذا العصر من الأنانية والبغى والعدوان الفردى أن يعزب عن أخوان الأثرة والطمع ذلك الضعف الإنسانى الأكبر.. الشهوة الجامحة.. التى يمكنهم باستثارتها جلب كثير من المنافع. فلم يفتهم ذلك فعلا بل استخدموا غريزة الشهوة العارمة فى الإنسان ما وسعهم وما أمكنهم. إذ أصبح مدار العمل والعناية كله فى المراقص والمسارح ومراكز إخراج الأفلام على أن تستخدم لها الغيد الحسان، ويعرضن على المنصة فى صورة أكمل من التبرج، وفى هيئة أقرب إلى العرى ويجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر ما يمكن من إضرام نار الشهوة فيهم.. جاء قوم فمهدوا الأسباب لإكراه النساء وتقدموا بحرفة البغاء إلى أن أصبحت تجارة دولية منظمة.. وجاء آخرون فتفندوا فى صنع أدوات الزينة والزخرفة. ثم عمموها فى المجتمع ليزيدوا من غريزة التبرج التى جبلت عليها المرأة إلى أن يجعلوها فيهن هوساً، ويجمعوا بذلك الذهب والفضة ملء أكفهم.. وجاءت فئة أخرى فاخترعوا لملابس النساء أزياء كشافة مغرية واستخدموا كل فاتنة الجمال لتلبسها وتغشى بها النوادى والحفلات حتى يقبل عليها الشباب ويفتنوا بها فتغرم الفتيات بتلك الأزياء الجديدة من اللباس وتربح تجارة مخترعيها. وتذرع آخرون بإشاعة الصور العارية والقصص الغرامية والمقالات الخليعة الى استدرار الأموال وأخذوا كذلك يملأون جيوبهم بإصابة العامة بالجذام الخلقى حتى انتهت الحال على مضى الأيام إلى أن لم تبق ناحية من نواحى التجارة خالصة من عنصر الإغراء. وها أنت ذا صرت لا ترى فى زمانك هذا إعلاناً من الإعلانات التجارية فى الجرائد والمجلات إلا وسمته الملازمة البارزة صورة امرأة عارية أو فى حكم العارية، كأنه لم يعد من الممكن أن يكون إعلان ما وافياً بالغرض بدون وجود المرأة، ولا تجد كذلك فندقا من الفنادق ولا مقهى ولا صالة عرض إلا وقد استخدمت فيها المرأة لتعمل عملها المغناطيسى فى الرجال).

(وكان المجتمع المسكين المخذول لا يملك - حيال ذلك كله - إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصالحه وهى أن يستعين بتصوراته الخلقية على دفع تلك الغارات عن نفسه لكنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداء وعسكر شيطانى عرمرم من العلوم

والآداب، كانا لا يزالان يعملان عملهما فى نسخ النظريات الخلقية ومحوها من النفوس).

(ومن براعة القاتل – والله – أن يحمل قتيله على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورضاه) .. (ص ٨٢ – ٨٧) .

.. (هذه حال المرأة عندهم .. وأما الرجال فما تزيدهم كل هذه المظاهر الخلابة من الجمال النسوى إلا شوقاً وطموحاً ونهمة . لأن نار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأججة فى الصدر لا تخمد بكل منظر جديد من الخلاعة والسفور، بل تزداد لهيباً، وتتطلب منظراً آخر أكثر منه سفوراً وحسوراً وتكشفاً . ومثلهم فى ذلك كمثل من تصيبه لفحة من السموم فيكاد لا يسكن ظمؤه . كلما ازداد عطشاً وظمأً . فهم دائماً فى أعداد أدوات، وتهيئة أسباب وظروف لاطفاء أوار شهوتهم المبرح بهم، ولا يهدأ لهم دون ذلك بال، ولا هم يستقر لهم قرار . ما هذه الصور العارية، وهذا الأدب المكشوف وهذه القصص الغرامية، وهذه المراقص والمباذل والمسرحيات المشحونة بالانفعالات والنزعات العارمة .. ما هذه كلها إلا نماذج من جهودهم وحيلهم التى يتعاطونها لإخماد الشهوات الجامحة – ولكن فى الحقيقة لاستثارتها والنفخ فيها – التى أججها هذا المجتمع الماجن، وتلك الحياة الاجتماعية الضالة فى صدر كل فرد من أفرادهم .. ولكنهم سموها بالفن لإخفاء هذا الضعف الكامن فى نفوسهم وفى حياتهم) .

(ولا يزال هذا الداء الوبيل – من غلبة الشهوات البهيمية – ينخر فى كيان الأمم الغربية وينتقص من قوة حياتها بسرعة هائلة . والتاريخ يشهد أنه ما سرى هذا الداء فى مفاصل أمة إلا أوردها موارد التلف والفناء . ذلك بأنه يقتل فى الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية بلقائه وتقدمه فى هذه الحياة . وأنى للناس – لعمر الله – ذلك الهدوء وتلك الدعة والسكينة، التى لابد لهم منها لمعالجة أعمال الإنشاء والتعمير مادامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب، وتكون عواطفهم عرضة أبدا لكل فن جديد من الإغراء والتهييج، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة . قوى التحريض، ويكون الدم فى عروقهم فى غليان مستمر بتأثير ما حولها من الأدب الخليع، والصور العارية، والأغانى الماجنة . والأفلام الغرامية . والرقص المثير، والمناظر الجذابة من الجمال الأنثوى العريان، وفرض الاختلاط بالصنف المخالف . – أستغفر الله – بل أنى لهم ولأجيالهم الناشئة أن يجدوا فى غمرة هذه الهيجات الجو الهادىء المعتدل الذى لا مندوحة عنه لتنشئة قواهم الفكرية والعقلية وهم لا يكادون يبلغون الحلم

حتى يغتالهم غول الشهوات البهيمية ويستحوذ عليهم. وإذا هم واقعو بين ذراعى هذا الغول فأنى لهم النجاة منه ومن غوائله وعواديه!) .. (ص ٣٧ - ٣٩).

(كان أكثر الأمم تأثراً بحركة منع التناسل هى فرنسا فكانت نسبة المواليد فيها إلى الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالى - عند نشوب الحرب العالمية الأولى - ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع والثمانين تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات. وأما المقاطعات السبع والستون الباقية فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد. وكان معدل الوفيات فى بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٣٠ - ١٧٠ بإزاء كل مئة مولود. فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ودفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين، ورجال محاربين، وأنه أن ضحى - على الفرض - بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها فى سبيل الدفاع عن الوطن فى تلك الآونة، فإنه لن تمكن النجاة من كرة العدو الثانية. فكان من انبعاث هذا الشعور فى نفوس الفرنسيين أن تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم وجعل الكتاب والصحفيون والخطباء - وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة - كلهم يهيبون بالناس من كل جانب وبصوت واحد: أن يكثروا من التوليد والتناسل، ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والزواج ونادوا أن العذراء التى تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن، تستحق العز والكرامة لا التعب والملامة! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة الحال حافزا قوياً لدعاة الحرية والاباحية فانتهزوا الفرصة السانحة وبثوا جميع ما كان قد بقى فى جعبة فكرهم الشيطانى من النظريات) .. (ص ٧٢ - ٧٣).

(إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم اضمحلال قواهم الجسدية وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً. فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم، وتعبد الشهوات يكاد يأتى على قوة صبرهم وجلدهم، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم. فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسى يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب فى المتطوعة للجندى الفرنسى على فترة كل بضع سنين لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر فى الأمة على مسير الأيام.. وهذا مقياس أمين يدلنا - كدلالة مقياس الحرارة فى الصحة والتدقيق - على كيفية اضمحلال القوى الجسدية فى الأمة الفرنسية) .. (ص ١١٣).

(والنكبة الثانية العظيمة التى قد جرها على التمدن الفرنسى طغيان

الشهوة المطلقة ورواج الإباحية وقبولها: هى خراب النظام العائلى وتقوض بنيانه)..
(ص ١١٤).

(والأمة الفرنسية – كما أسلفت – لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عاماً متوالية. ففى بعض السنين تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد، وفى الأخرى تتساويان وفى الثالثة لا تزيد على نسبة الوفيات إلا بقليل جداً. وبجانب آخر لا يزال عدد الجالية المهاجرين فى فرنسا ينمو ويكثر فكانوا قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليوناً من سكان فرنسا الأصليين سنة ١٩٣١. وان استمرت الحال على ما هى عليه الآن، فلا يستبعد أن تعود الأمة الفرنسية عند ختام القرن العشرين أقلية فى وطنها هى).. (ص ١٣٢).

(ولا يحسبن أحد أن الأمة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذ عن غيرها فى هذا الباب. بل الأمر أن جميع الأمم التى قد آمنت بما ذكر آنفا من نظريات الأخلاق ومبادىء الاجتماع المتطرفة تماثلها وتجاريها فى تلك الحال). (ص ١٢٣).

نشر فى جريدة فرى برس بدوترويت الأمريكية مقال جاء فيه:

(إن ما قد نشأ بيننا الآن من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاحش العلاقات غير المشروعة – الدائمة والعارضة – بين الرجال والنساء يدل كله على أننا راجعون القهقرى إلى البهيمية. فالرغبة الطبيعية فى النسل إلى التلاشى، والجيل المولود حبله على غاربه، والشعور بكون تعمير الأسرة والبيت لازما لبقاء المدنية والحكم المستقل، يكاد ينتفى من النفوس. وبخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال لمآل المدينة والحكومة وعدم النصح لها).. (ص ١٣٧).

(كل هذا الاتباع لأهواء النفس والنفور من تبعات الزوجية والتبرم بالحياة العائلية والارتخاء فى الروابط الزواجية، يكاد يذهب فى المرأة عاطفة الأمومة الفطرة التى هى أشرف العواطف الروحية وأسماها فى النساء والتى لا يقف عليها بقاء الحضارة والتمدن فحسب، بل بقاء الإنسانية جمعاء وما نجمت سيئات منع الحمل، وإسقاط الجنين، وقتل الأولاد، إلا بنضوب هذه العاطفة فى نفس المرأة فالمعلومات عن تدابير منع الحمل موفورة لكل فتى وفتاة فى الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من قيود القانون. والآلات والعقاقير المانعة للحمل معروضة للبيع فى الحوانيت كالسلعة المباحة تستصحبها دائماً بنات المدارس والكليات – بله عامة النساء – لكى لا تفوت إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب، ان نسى خدينها أن يأخذ أدواته معه. فيكتب القاضى (لندسى) فى محكمة دنفر: (٤٩٥ بنتا فى السن الباكرة من بنات المعاهد الثانوية اعترفن لى بأنهن قد جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان إلا أنه لم تحمل

منهن إلا خمس وعشرون. وأما الباقيات فسلم بعضهن من الحمل بمحض الاتفاق. ولكن كانت لأكثرهن خبرة كافية بتدابير منع الحمل. وهذه الخبرة قد عمت فيهن الى حد لا يكاد الناس يصيبون فى تقديره) .. (ص١٣٩) .

وقد ذكرت مجلة أمريكية هذه الأسباب التى لا تزال تؤدى إلى رواج الفحشاء وقبولها هناك بالكلمات الآتية :

(عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم. وهى جميعها فى تسعير سعير لأهل الأرض : أولها الأدب الفاحش الخليع الذى لا يفتأ يزداد فى وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة .. والثانى الأفلام السينمائية التى لا تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب، بل تلقنهم دروساً عملية فى بابه .. والثالث انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء الذى يظهر فى ملابسهن بل فى عريهن وفى إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام .. هذه المفاسد الثلاثة فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام. ولابد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر. فإن نحن لم نحد من طغيانها فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للشهوات والأهواء موارد التهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء ومشاغل ورقص وغناء) .. (ص ١٢٩) .

* * *

والآن نستمع إلى شهادة الطبيبة التى تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) بعنوان (جنس ثالث فى طريقه إلى الظهور) من مشاهداتها فى (فيينا) :

(.. شاءت الظروف أن أذهب فى عطلة الأحد لزيارة صديقة لى طبيبة باحدى ضواحى (فيينا) -- بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية فى دار الكتب – وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة. فما كان أشد عجبى حين فتحت لى صديقتى باب بيتها معجلة وفى يدها (بطاطس) تقشره. ثم قادتنى فى لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هنا.

(ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة. فابتدرتنى قائلة :

(ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة فى المطبخ يوم الأحد !

(قلت ضاحكة :

(أما العمل يوم الأحد فربما فهمته. وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك، فهذا ما لم انتظره.

(فردت :

(لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب . فالعمل فى عطلة الأحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتى الوحيدة لكى أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالى بالمطبخ فلعلى لم أتجاوز به نطاق مهنتى . إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معى سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

(ولما سألتها عن سر هذا القلق – مع استقرار الوضع الاجتماعى للمرأة الغربية – أجابت بأن ذلك القلق، لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا فى المرأة العاملة . وذلك لما لحظوا من تغير بطىء فى كيانها لم يثر الانتباه أول الأمر لولا ما سجلته الاحصاءات من اطراد النقص فى المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختيارى محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والارضاع تحت ضغط الحاجة والاستقرار فى العمل . ولكن ظهر من استقراء الاحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات، لم يكن أكثره عن اختيار بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه فى الغالب لا يرجع إلى عيب عضو ظاهر . مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارىء على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادى والذهنى والعصبى – عن قصد أو غير قصد – عن مشاغل الأمومة ودنيا حواء وتشبثها بمساواة الرجل ومشاركته فى ميدان عمله .

(واستند علماء الأحياء فى هذا الفرض – نظرياً – إلى قانون طبيعى معروف وهو أن (الوظيفة تخلق العضو) ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هى التى خلقت فى حواء خصائص مميزة للأنوثة لابد أن تضمر تدريجياً بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه (عالم الرجل) .

(ثم تابع العلماء هذا الفرض فان التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظراً وإذا بهم يعلنون – فى اطمئنان مقرون بشىء من التحفظ – عن قرب ظهور (جنس ثالث) تضمر فيه خصائص الأنوثة التى رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

(وثارت اعتراضات . . منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمى حقها فى العمل ويتيح لها بحكم القانون فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب .

(وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائمًا الخوف من أعبائه والاشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها فى محل العمل . ثم أن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا فى حدود ضيقة وتحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج فيرد عليه بأن هذا الخروج - على قرب العهد به - قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل ، وإصرار عنيد على التشبه به - مما عجل ببوادر التغيير لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها فى ضميرها .

(وما يزال المهتمون بهذا الموضوع ، يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ويستقرئون فى اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات ، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة) . . (جريد الأهرام) .

* * *

ومن مقال إخبارى فى (أخبار اليوم) - من استوكهلم - لموسى صبرى :

(قال لى أستاذ جامعى سويدى :

(إننا نعلم أبناءنا وبناتنا فى المدارس الثانوية وفى سن مبكرة ، كل شىء عن الجنس واضحًا صريحًا . ليست لدينا مشكلة جنس . أن المتعة الجنسية كمتعة الطعام اللذيذ ، ومتعة الملابس الأنيقة ، والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبل الزواج هى شىء طبيعى عادى ، وما يباح للشاب يجب أن يباح للفتاة .

. . . (وخلاصة القول ان حرية الحب) فى السويد تعنى أن نداء الجنس هو نداء طبيعى ، كنداء البطن ، ونداء العقل . . وليس فيه ما يدعو إلى كبته أو شدة كتمانه . . ولقد تطور بهم مجتمعهم إلى هذه النظرة المجردة إلى الجنس بين الرجل والمرأة - وقد فوجئت وأنا أتروض فى حدائق (سكانسن) ذات صباح مشمس بوجود بركة مياه لاستحمام الصبية والبنات . ورأيت الأولاد والبنات يستحمون فى الماء عرايا كما ولدتهم أمهاتهم وهم ما بين سن الثامنة والحادية عشرة . . وتبددت المفاجأة تمامًا عندما عرفت أن الكبار أيضًا من النساء والرجال ينزلون إلى البحر ويمرحون على الشاطىء وهم عرايا تمامًا . . ليس هذا هو أسلوبهم فى التصييف فهناك من يرتدى المايوه . ولكن نزول (شلة) من الجنسين إلى البحر - وهم عرايا - أمر لا يلفت النظر ولا يدير أى رأس ! .

والسؤال : وماذا تفعل الفتاة إذا أصبحت أماً بغير زواج ؟

(والجواب : إذا تخلصت من جنينها كان بها . وإذا لم تتخلص فإن الدولة كفيلة

برعاية الطفل وحضانته وتعليمه بالمجان حتى سن السادسة عشرة. وهو يقيد فى سجل مواليد باسم أمه. أو باسم الأب – إذا اعترف به – والمجتمع لا يعطى الابن غير الشرعى أو الأمهات غير المتزوجات إلا كل تقدير واحترام!

وهنا نتساءل – فى جد وخطورة:

إذا كانت السويد تعتبر كدولة من أرقى دول العالم، فهل نستطيع أن نتصور أننا – وباقى الدول – سننجرف إلى هذا المصير إن عاجلاً أو آجلاً؟

(وتأكيد تقديم السويد – كأرقى دول العالم – أمر تؤيده الإحصاءات وتعترف به كل الأبحاث العلمية.

(إن ما يخص الفرد الواحد فى السويد من الدخل القومى يساوى ٥٢١ جنيها مصرياً فى العام. أى حوالى ٤٣ جنيها فى الشهر الواحد.

(ووصل نظام الحكم الاشتراكى فى السويد إلى ما يقارب محو الفروق تماماً بين الطبقات بفرض الضرائب التصاعدية وإيجاد مختلف أنواع التأمينات الصحية والاجتماعية التى لا تجدها فى دول أخرى.

(كل مواطن يستحق نصيبه من التأمين الصحى وإعانات المرض التى تصرف نقدا والعلاج المجانى فى المستشفيات.

(تدفع إعانة أمومة لكل النساء. تشمل هذه الإعانة مصاريف الولادة والرعاية الطبية فى المستشفى وإعانة إضافية لكل مولود.

(التأمين ضد إصابات العمل إجبارى.

(شروط الإعانات فى حالة البطالة هى أسخى شروط معروفة دولياً.

(تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة أقرب إلى الخيال. منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيهاً فى العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة. رعاية صحية مجانية. مصاريف انتقال مجانية للإجازات يتمتع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة. مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم.

(التعليم فى جميع مراحله بالمجان، مع تقديم إعانات ملابس، واعانات معيشية لغير القادرين وتقدم للطلبة قروض دراسة تصل الى ٢٥٠ جنيها للطلبة المجتهدين.

(تقدم الدولة قروضاً لتأثيث منازل العرسان تصل الى ٣٠٠ جنيها بفائدة بسيطة تسدد على خمس نسوات.

(إن ثلث الضرائب التى يدفعها الشعب السويدى تنفقها الدولة فى التأمينات الاجتماعية، وتدفع الدولة ٨٠ فى المائة منها فى مساعدات نقدية. أن أضخم ميزانية هى ميزانية وزارة الشئون الاجتماعية التى وصلت هذا العام إلى ٣٣٤ مليون جنيه. ثم

تليها ميزانية وزارة التربية وقد بلغت ١٣٣ مليون جنيه. بينما تنزل ميزانية القصر الملكى إلى حوالى ٤٠٠ ألف جنيه فقط.

(مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار فى الحياة وتكوين أسرة فان الخط البيانى لعدد سكان السويد يميل إلى الانقراض.. مع وجود الدولة التى تكفل للفتاة إعانة زواج ثم تكفل لطفلها الحياة حتى يتخرج فى الجامعة. فان الأسرة السويدية فى الطريق إلى عدم انجاب أطفال على الإطلاق.

(يقابل هذا:

(انخفاض مستمر فى نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين..

(وارتفاع مستمر فى نسبة عدد المواليد غير الشرعيين..

(مع ملاحظة أن ٢٠ فى المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدا.

(لقد بدأ عهد التصنيع وبدأ معه المجتمع الأشتراكى فى السويد عام ١٨٧٠. كانت نسبة الأمهات غير المتزوجات فى ذلك العام ٧ فى المائة وارتفعت هذه النسبة فى عام ١٩٢٠ إلى ١٦ فى المائة، والإحصائات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة فى الزيادة.

(إن نسبة الطلاق فى السويد هى أكبر نسبة فى العالم كه. إن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات – طبقاً للاحصاءات التى أعدتها وزارة الشئون الاجتماعية بالسويد. والنسبة بدأت صغيرة وهى مستمرة فى الزياة.. فى عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقاً بين كل ١٠٠ ألف من السكان. ارتفع هذا الرقم الى ١٠٤ فى عام ١٩٥٢. ثم ارتفع الى ١١٤ فى عام ١٩٣٤.

(سبب ذلك أن ٣٠ فى المائة من الزيجات تتم اضطراراً تحت ضغط الظروف بعد أن تحمل الفتاة، والزواج بحكم (الضرورة) لا يدوم بطبيعة الحال. ويشجع على الطلاق أن القانون فى السويد لا يضع أية عقبة أمام الطلاق، إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جداً. وإذا طلب أحدهما الطلاق فان أى سبب بسيط يقدمه يمكن أن يتم به الطلاق.

(وإذا كانت (حرية الحب) مكفولة فى السويد.. فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد.. أنها (حرية عدم الإيمان بالله)! لقد انتشرت فى السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الاطلاق وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمارك أيضاً. فالمدرسون فى المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها فى عقول النشء والشباب.. **أن الكنائس موجودة فى كل مكان ولكنها أقرب إلى التحف الأثرية. والدولة تصرف على الكنائس وتدفع مرتبات القسس. ولكن**

الكنيسة لا تفتح أبوابها إلا صباح الأحد لبضع ساعات ولا يؤمها إلا عدد محدود جداً من العجائز أمثال جدتى وجدتك، والنكتة التى تسمعها منهم: انهم حددوا ساعات العمل للكنيسة بثلاث ساعات فى الأسبوع. وانها من حقها بعد ذلك أن تأخذ أجازة.. لم يعودوا يؤمنون بأن الدين هو وسيلة إلى إشباع حاجات النوع الإنسانى!

(وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد فى السويد وباقى دول اسكندنافيا. إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف وإلى الإدمان على المخدرات والخمور.

.. (وقد قدر عدد أطفال العائلات التى لها أب مدمن بحوالى ١٧٥ ألفاً. أى ما يوازى ١٠ فى المائة من مجموع أطفال العائلات كلها.. وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف.. إن من قبض عليهم البوليس السويدى فى حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥، ١٧ يوازى ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاماً! وعادة الشراب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيىء إلى أسوأ.. ويتبع ذلك حقيقة رهيبة:

إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ فى السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية. ولا شك أن التمادى فى التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية.. ويزيد من دواعى تفكك الأسرة ويقربهم إلى هوة انقراض النسل..

(قال لى صحفى نرويجى:

(إن مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان..

(قلت له:

(وماذا تفعل حكومتكم لدرء هذا الخطر؟

(أجاب متألما:

(إن حكومتنا أيضاً ليست مؤمنة).. (أخبار اليوم).

* * *

وبدون أى تعليق أو تعقيب نغلق هذا الفصل على هذه النذر الرهيبة فهى ناطقة بذاتها. إن الذين يخالفون قانون الفطرة، لا يمكن ان يمضوا بلا عقاب.. وهو عقاب رهيب ولو تفتحت عليهم أبواب كل شىء من خيرات الأرض ورخاء العيش ومضاعفة الدخل، والضمانات المادية الخيالية. فللحياة الإنسانية قوانيها الفطرية الصارمة التى لا تجامل، ولا تتخلف، ولا تلين.

هذه القوانين هى التى يقول عنها الدكتور الكسيس كاريل:

(إنهم لم يدركوا أن أجسامهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية. وهى قوانين أكثر غموضًا - وإن كانت تتساوى فى الصلاة - مع القوانين الدنيوية. كذلك لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم).

ولقد حذر الله - سبحانه - عباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين. وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه المتمشى مع سنته فى الكون فلا تكون لهم من عواقبها نجاة:

﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [يونس: ٢٤].

وصدق الله العظيم.

* * *

ولعل بهذا نوضح موضوع المؤيدات الفطرية التى تجعل الإنسان أمام طريق وحيد عليه أن يسلكه هو طريق الله المتمثل بالإسلام دينه الحق ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩]. الإسلام الذى أنزله الله على محمد عبده ورسوله ﷺ ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* * *